بعد مقتل عبدالله بن الزبير

أسماء

تتحدّث إلى الليل وقد سالت جراحها

نذير الحسامي

وحديث (ذات النطاقين) هو حديث المرأة العربية البارّة التي رضعت العصمة والعنفوان واليقين في بيت أبي بكر الصدّيق ، أبيها المؤمن العظيم ، ثم أرضعت هذه الخلال الانسانية أبناءها البررة الأبطال ٠

انه الحديث الذي تتجلى في تضاعيفه شيم الكبرياء في الحق والايمان والكرامة الانسانية ٠٠ هذه الشيم العربية تنطق بها بالأقوال وبالأفعال (أسماء) العظيمة رمز الأمومة العربية البطلة النادرة في الاسلام ،وهي تربي في أبنائها رجولة الرجال المخلصين لعقيدتهم الأمناء عليها والمتفانين الى حد الفداء في الجهاد والعطاء في سبيل دعوة الهدى والرشاد ٠ وكيف لا تصح هذه الشهادة وهي شهادة الأجيال والتاريخ فيمن باعوا أنفسهم رخيصة في مرضاة مثل أعلى اعتنقوه في الدعوة الى الله ورسوله وأبوا أن يشتروا خفض العيش وأمن الأيام في نكوص جبان عن الطريق الذي ارتضوه وارتضته لهم الأم ، طريق المقاتلين البسلاء ، كما لم يهونوا في استسلام ذليل لمن حاربوا البغي الذي رأوه في حربهم عليه ٠

ان تاريخ البطولات الانسانية ليخشع أمام ذكرى تلك الأم التي قدمت ولديها عبدالله ومصعب جنديين فدائيين فيما يريانه الحق ٠وان هذا التاريخ لينحني اجلالا أعظم مايكون الاجلال أمام كبرياء تلك الانسانة ، الأم ،وهي تدعى لأن تسأل من مثّل بابنها الشهيد وصلب جثمانه مبتور الرأس ، أن يأذن بدفنه بعد أن بقي أياماً في العراء نكالا له فلا يكون منها الا أن ترفض أن تستجدي القاتل وتكتفي ـ بكلمتها الخالدة أمام جثمان ابنها البطل

عبدالله ، وكأنها ترسل خطاباً يهدر بالعظة والاباء الى الأمهات العربيات أو الى جلادي المقاتلين الشرفاء في كل زمان ومكان :

« أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟ »

وبوركت دمعة الأمومة تنحدر أبية جريحة في صمت على خد تلك الأم ، وفيها ذوب كبد ما لانت على الشدائد والأحداث وهي في المئة من عمرها المضيء ٠

وبوركت أماً عربية صديقة ٠٠

نذير

★ ★ ★

(أسماء) :

أيها الليل يا حزيناً توجّدْ
فيك سيماء موجَع القلب مجهدْ
أي صوت كأنه رجع صوتي
وخيال على خيالي يهدهد ؟
ما أراني وحدي أبثك شجوي
يا شهيد الأسى أغيري تشهد ؟
أعلى راحتيك مكلومة مثلي
اذا هدني ادّكاريَ تنهَدّ ؟
من تراها معي تدندن ثكلى
أنت فيها وفي جواها مسهّد؟
لفها منك مثلما لفني جنح
على كل شهقة يتنهّد
أنت خدري وما عهدتك فضّاح
جراح بسترها كنت تعهد

★ ★ ★

ايه ياليل سمّ لي أخت ليلي
فهي مني ، طيفاً عليك مشرد
سمهالي ٠٠ ياويح لي من تسمي؟
أنا أختي جرح بقلبك مفرد
أنا همي وغربتي أنا ثكلي
في شقائي أم المكارم تسعد !
آهِ ياليل أخت ليلي التي يشجيك
في جرحها العذاب المبرد
ليس الاّي في جناحك أخت
تتغنى اذا الحِمام تهدد
يرهب الموت عنفوان أمانيها
فيمضي بصيده غير أصيد
نزوات الرجال تحت خطاها
مرّغت والتوى بها الافك مقعد
صغرت حولها الرجولات تنهار
حطاماً على الرغام مبدد !

وانحنى للعفاف جور النماريد
وولّى بالخزي غير مسوّد
شمخت فيهم أنوثة (أسماء)
فذلّوا عقيدة ومهنّد
وتلوب الدنيا على قدميها
وهي لا ناظر اليها ولا يد
من علا الله في النفوس تعاليها
فيا جمرة على الحق توقد

★ ★ ★

أنا (أسماء) أيها الليل فاشهد
عبراتي على الاباء تردد
خلّنا في شجوننا وابق يا ليل
نجيي وارفق بمسراك يا غد
قف بنا نبك ساعة أو فدعني
حرة في فجيعتي أتوحد
أسدل السجف دون دمعي ورطّب
جانحاً للاسنة الزرق يرصد !
كنت أم الغضنفرين(١)، على المحنة
أحمى ، وفي الكريهة اشتد
تعرف الكبرياء (ذات النطاقين)(٢)
اذا أبرق الفجور وأرعد
لن ترى بي الأحداث غير لباة
مالواها سهم اليها يسدد
سل غواشي الصحراء هل تعب المسرى
عليها وجحفل الشرك ينهد ؟

كان مسراي في دروب لياليها
صلاة فيها الهوى يتعبّد
من قريش دوني المسالك تسودّ
لقصد عرفته غير أسود
ظمأ الهاجرات لم يثن في مكة
قلباً مراشف الخلد يوعد
سل رمال الصحراء هل فجرتني
غير عين في سلسل الله تورد
سل دروع الطغاة هل كنطاقيّ
بدرب الهدى على البأس يعقد ؟
لا أبالي وفي النبيّ وفي الصدّيق
شوقي ، مكابراً يتوعد
طالما اشتقت أن يضمني الغار
وأني على الحصى فيه أولد
رضي الصاحبان عني فأرضانيَ
أني شوك القتاد أوسّد
كان زادي من الصفيين طيباً
علوياً بمثله لم أزود
وعلى الحب من أبي ورسول الله
ضوء في جانحي ليس يخمد
ماعراني ياليل ؟ أشرق بالجرح
على ذكر خنجر فيّ مغمد !
ويل نفسي بل ويل من ظنها يوماً
على الموجعات مهجة جلمد

هو ذا في علاه ينزف (عبدالله)
جرحاً على الزمان مخلد
عبق العنفوان من دمه الطهر
يغنّي فكيف لا أتوجد ؟
فاح يا ليل في حماك فحيّاه
دمٌ(٣) في ثرى الفراتين زغرد
الشهابان (مصعبٌ) و (أخوه)
فرقد في السماء ناداه فرقد

★ ★ ★

دمعة الكبرياء :

ابكِ يا قلب ورجّع لم يفارقنا المساء
يغفر المجد لنا الدمع وتعفو الكبرياء
سامحتنا الكأس بالنشوة والكأس امتلاء
هل يعيب الصخر أن ينفجر الصخر بماء؟
أو يهين الجرح أن يبتل جرح بالدماء ؟
أنا أم الحب لم يبخل فؤادي بعطاء
خيلائي أنني في الدمع أم الخيلاء

●

نادِ مغدوراً اذا ناديته رد النداء
قتلته طعنة نجلاء من باغي نجاء !
من جبان خائن الصحبة يُكدي في الوفاء
طعنة الفرّار لم يرْع لكرّار اخاء
ذاقها من خنجر الأدنين قبل البعداء !
الأخلاء من الجند .. وأكرم بالولاء !
غادروه يلتقي الجمع على أرض خلاء
تركوا الأعداء يستفتون فيه الأصدقاء!!
غرزوا الطعنة في الظهر وضجوا بالدعاء
هربوا بالعهد والتفوا على قدس اللواء
مزقوا ستر المروءات وناموا كرماء !
لم يبالوا لعنة الساحة أو غيظ السماء
خذلوه وارتموا في عارهم كل ارتماء
سأل الايمان : هل فروا عبيداً أم اماء؟
جرحوا السيف فصاح السيف: من لي بالنساء
الحواريّون راحوا حين (عبدالله) جاء
نقضوا ما عاهدوا الكبر عليه والاباء
خلعوا اللبدة وانسلّوا وراء الذئب شاء(٤)
أفعادوا بالخيانات فعادت كربلاء ؟
ابك يا قلب الرجولات التي ماتت مساء!
آن أن يدميك أو يرديك غدر الجبناء
ربما تنتحر الخيل اذا مات الحداء

●

عصمة في البكاء :

وابك يا ليل وواسي وأعنّي
قبل أن يطفح كاسي فاض دنّي
عجمت عودي المآسي بالتجني
كان في الشدة باسي عند ظني
ومع الروع مراسي لم يخني
خرّق الدهر لباسي وهو خدني ؟ !
هل لكأسي اليوم حاسي غير وهني ؟

أو أرى في الحي آسي غير حزني ؟
أنـا في ثُكلي أقاسـي وأغني !
ليس ، يادنيا ، شماسي بمجنّ
أنـا بالله احتراسـي فاطمئني
آه مـن غـدرة ناس يوم دجن
هدموا الركـن بفاس نصب عيني
ورمونـي بانتكـاس فيه حيني
أسلموا الذكر لناسـي متجني
طعنوا كفء الرواسي شر طعن
وانتحوا عنـه براس وبسنّ !(٥)
فابك يا ليل غراسـي فهو ابني

●

◉ مرثية (أسماء) في عبدالله ومصعب :

ارو عني يا ليل ٠٠ بل خلني أروي
ألم تَشـج في بكـاء الحمائـم ؟
هـذه في بطـاح مكـة قامـت
مـلء سمعي منائـح للمكـارم
بكت الطير من غدا يُلقم الطـير
علـى كل جانح منـه راحـم
وبكى الركن والمصلّى الفتى القوّام
يطوي جنح الدجـى وهو قائـم
كل عـانٍ بكى الحسام الزبيريّ
بعد اليقـين لـم يخش لائـم
راهب الليـل بايعتـه المروءات
فوفّى نذورهـا وهـو صائـم
واحد في الوغى بألف كميّ(٦)
وأخو عزمـةٍ بجيش عزائـم
صـارم في يد الضيـاء اذا اهتز
ينادي ليـلُ الردى : أي صارم
ماجد" ليس زيّـه فروة الذئب
ولا حليـه جلـود الأراقـم(٧)
بين عينيه ، حيث كان، كتاب الله ٠٠
لا يمتـري بـه أو يسـاوم
أيها الليل أصغ لي ٠٠ أصغ للنعي
أفي كـل دارة منـه راجـم ؟
هـذه الأمهات يبكين (عبدالله)
راعي الحمـى وحامي المحـارم
صلبته يد الجريمة ٠٠ لـو شُلّت
علـى مثلهـا يدا كـل جـارم
رهبوا نظـرة الحسيب بعينيـه
وخافوا حتى اسمـه وهو نائم !
حين ألفوا فيه المطاعـن خرساء
استداروا على الفتى بالشتائم !
وتمشت يد النذالـة بالسكـين
تحتـز رأس أكـرم حالـم
قذف الرأس في بساط سكـارى
فعلـى كـل حاكم فيـه حاكم
جعلوه والاثم يضحـك منهـم
لعبـة الآثمـين في عرس آثم !
كم خشوا أن يحدّق اللحظ فيهم
فتمـادى بسكـره كـل ناقـم
لو سألت الحجاج: ياصالب الجثمان
أنّى في الصدر تُشفى السخائم ؟

ما ارتوى اللؤم في اغتيالك (عبدالله)
حتـــى تغتـال فيـــه المكـارم ؟
عرفته الطيور مـــن طيب ريّاه
فرفّـت علـــى عـلاه حوائـــم
حانيـــات تـود لـــو حضنتـــه
بالخـوافي أسرابهـــا والقـوادم
ساءهـــا بالدموع رزء مآقيهـــا
فرنّت تزجـــي اليـــه الغمائم
جسدٌ كـــل طعنـــة في مـــداه
فمٌ حـــادٍ الى الضـراب مزاحـــم
ولســـان يدعو الى الحـــق زآراً
ألا أين في الرجـــال الضياغـم ؟
كذبـوا في القتـــال الا قليـــلا
وكبوا في الفـــداء الا شـراذم !
عجمتـــه السيوف تكسـر رؤياه
فلم يكســـر الجفـــون لعاجـــم
هُزموا دونه على الخزي فاعجبْ
لقتيـــل في حومـة الحق هازم !
لست أدري أقرّ في كبد الحجـاج
ضغن ·· فابن الزبير مسالم ؟ !
هو ذا فارغ اليدين مـــن السيف
أيخشى ان جـــاءه أن يقـاوم ؟
لهف نفسي على الجبين الذي ولّى
وثغـر علـــى المنيـــة باســـم
فارس يمـــلأ الفضـــاء جـلالا
أي صرح مـــن البطولات قائم ؟

قم تملَ الجمال يا قارىء الآي ··
سليـل الايمـــان يروي العظائم
أبواه عاشا على الموت في الحـــق
فخاض الـــردى بغـير تمائـم !
لو سألت الحجاج : ياطاعن الجثمان
دقّـاً في صـدره والمعاصـــم
أعلى الصلب جئت تستنزف الايمان؟
جـــلّ الايمان عـــن سوم سائم
لو سألت المسمار : أيكما بالصلب
أولى ؟ لمـــال نحـــوك ساهـــم
في ضلال السُرى تخبّطك الليل
لتمضي في الخبط أرعن غاشم(٨)
هل رأيت البيت الحرام رمى الطاعة
حتـــى رميتـــه بالرواجـــم ؟
يا لجوجاً بالسيف ··· أي لجاج
زدت كسباً بـــه وسيفك غارم ؟
أيُهذا السياف هل سور القرآن
مُدت الى الرقـاب ســـلالم(٩) ؟
في ربا الله ينبت الشـوك والورد
فهـــل في حمـاك للورد عاصم ؟
خلّ شوك البستان ما دمت تدمي
باسمـه الورد ضاحكاً والبراعم !
يا لبؤس الأحقـــاد تطعم موتوراً
فيرتد جائعـــاً وهـو طاعـــم !
شرف الغلب أن تعفّ عن المغلوب
مـا دام سيفـــه غـــير راغـــم

يا جناح الطاغي أذلت أمانيـــك
فعزّت بهـــا الأماني الظوالم ؟
ما الذي كنت ؟ كنت ناب الليالي
يا لحدّيك ، في الليالي الدواهم ؟
في رضاء الطغيـــان ألـف نبيٍ
أنت أغضبت ظالمـــاً وابن ظـالم
كم أبيّ ضحيت في مذبح الغـدر
فكانت وغـــاك سوق مآثـــم
وتقي أزهقت في طاعـة الكفـــر
أيسبى دم التقى في الغنائم(١٠) ؟
تعست بيعـــة الأمير أترضيهـــا
فتعصي الهدى وتدمـي المراحم ؟
يُهدر الأبرياء في طلب الملـــك
لعبد المنـــى وترمـــى الجماجم

●

آهِ يا ليـل غصّ قلبي بالذكرى
حنانيك يا شهـــاب الملاحـم(١١)
أترى طاش سهم أبنـــاء مـروان
فزاغت قلوبهـــم في المغـــارم ؟
واحنيني (لمصعَب) الموقف الصعب
اذا الســـاح زمجـرت بالضراغم
يكسف البـدر هيبـــة وجمـــالا
لم يكـــن ما بنت يد الذكر هادم
سل بليث الشرى (سكينة)(١٢) هل
ضمّت على مثله قلوب الكرائم ؟
خذلته الدنيا فثار على الخذلان
كيلا يلقـــى الـردى وهو جاثـم
راودواقلبهعلىالعيش(١٣)فانقضّ
شهاباً يبغـــي الفدا غـــير نادم
سرقواالشمسحينماقطفوا الرأس(١٤)
صغـــاراً وعربـدوا في المآتـــم
هكـــذا السادة الصغار استحلوا
كل عـــار ليسلمـوا بالعمائم !
كيف أنسى وكيف تنسى الليالي
بغي آبائهم برأس(ابن فاطم)(١٥)؟
الحسـين الهادي أبـــوه أبـــوه
والتـــي أنجبتـــه أم الفواطـــم
كيفأنسىرهطاًمن الجند في الساحة
باعـــوا سيوفهـــم بدراهم(١٦)
أجلبوا يولمـون في نجدة الكـــرّ
وفرّوا بنارهـــم والولائـــم ! !

●

◉ وتشمخ بالجرح (أسماء)

ايه يا ليل الليالي ما الذي في الأفق فاح؟
أترى نستنشـــق الضوء بأنفاس الصباح ؟
أم عبير من دم في كـل ركـــن مستبـــاح ؟
سال وضاحا علـــى حد العوالي والرمـــاح
عِطر ضمّخ بالعطـر وبالـري البطـاح
مزهَق بالبغـي ان هبت عليـه الريح صاح

شهداء يعرف الحق نداهم والسماح
ها هم في الكر لا طاحوا ولا الزآر طاح
كبّروا في عيد (عبدالله) يبغون الفلاح
أتراهم عيّدوا أم جددوا عرس الكفاح ؟
أسرجوا الخيل يجوبون الوغى ساحاً فساح
يشعلون الأرض فرساناً ويزجون الرياح
يعسلون البيت ممن دخل البيت سفاح
يا ابنة الصدّيق ما خطبك هذا الفجر لاح
هل صحا القلب من السكر أو الجرح استراح؟
ما اعترى العصماء يا أسماء؟ نوح" أم صداح؟
أيها الليل ألا ودعتني قبل الرواح ؟
يا أخي لو عُدتني أطلقت للدمع السراح
أعلى قلبي جناح ان وهى مني الجناح ؟
دع جناحاً منك يحملني ففي سمعي صياح
جرح (عبدالله) في عظمي زئير ونواح !
سنح الصبح أفي عينيه من دمعي التياح ؟
ان للصبح دموعاً خافها الوغد الوقاح
آخِه يا ليل في المصلوب سُمّاراً وراح
ردّه واستوصه خيراً بهاتيك الجراح
مل على ابني لاثماً في الجرح ورداً وأقاح

●

وتزأر بالنداء :

واشد بالحق مبينا أيها الليل المسافر
بأمير المؤمنينا ضج بالتكبير هادر
هو ذا يسعى طعينا دمه كالضوء ساحر
حوله الناس مئينا وألوفاً كالقساور
مشرع للعالمينا علَماً في كل ناظر
هو ذا رن رنينا بأذان الحق جاهر
واعتلى رفقاً ولينا منبراً لا كالمنابر(١٧)
ركب الرمل سفينا ومتون الريح طائر
يخطب المستشهدينا فيُرى في كل سامر
قم بنا نمش خدينا لخدين بالمزاهر
قام (عبدالله) فينا طيب الردنين طاهر
ليؤم المسلمينا في صلاة الصبح ظافر
واذا كبّرت حينا أيها الليل المغادر
لا تلح مثلي حزينا فلهذا اليوم آخر
نحن أقسمنا يمينا عقدت فيها السرائر
أن نرى الصبح يقينا برؤى الأحرار سافر
بكسوف الظالمينا من اباحيٍ وجائر
ان في الدمع حنيناً لضحى ينقضُ غامر
ان في الجرح جنينا هللت فيه البشائر
يشعل الانسان طيناً تزدهي فيه المنائر
لم يهن دنيا ودينا لم تطله كف داعر
يكسر الغل المهينا في رقاب أو ضمائر
حينما استعلى جبينا رد أم الظلم عاقر

●

الهوامش :

١ ـ (عبدالله) و (مصعب) ولدا الزبير بن العوام ٠

٢ ـ (اسماء) بنت ابي بكر وقد سميت (ذات النطاقين) لحملها الزاد من الطعام الى الرسول الكريم وابيها ليلا في نطاقين شدتهما على وسطها خلال اقامتهما في الغار في طريق الهجرة الى يثرب من مكة ٠

٣ ـ دم (مصعب) اخي (عبدالله) وعامله في العراق الذي قتله جند عبدالملك بن مروان في قتاله البطولي لهم في العراق ورفضه الاستسلام ٠

٤ ـ اشارة الى ما كان من تفرق جند عبدالله عنه وخذلانهم له في قتاله جند الشام بقيادة الحجاج الثقفي في مكة ، وقد انحاز بعض اصحابه الخلص الى الحجاج وكان معركة كربلاء بمآسيها على الامام الحسين قبله قد تمثلت معه ٠

٥ ـ الراس والسن هنا كنايتان عن الراي والمشورة وعن البأس والضرب لدى اكثر اصحاب عبدالله الذين فروا عنه ولم ينجدوه ٠

٦ ـ اشارة الى عبارة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتبها الى عمرو بن العاص وهو في مصر حين أرسل له مدداً من الجيش على راسه عبدالله بن الزبير وهي:
« لقد ارسلت لك واحداً بالف »

٧ ـ اشارة الى ما كان يتحلى به عبدالله من صدق واستقامة وبعد عن المراوغة مما شاء البعض أن يعده عليه ضعفا في السياسة ٠

٨ ـ اشارة الى ما عرف عن بطش الحجاج واستبداده واخذه الناس بالشبهات في توطيد الأمر للخليفة الأموي ٠

٩ ـ في التعريض بقسوة الحجاج الذي كان في شبابه يعلم الصبيان القرآن الكريم ، والسؤال : هل اتخذ من تدريسه الكتاب الحكيم ومن آيه البينات ذرائع فيما بعد بلغت به اعناق الأبرياء بالسيف ؟ ؟

١٠ـ اشارة الى ما ازهق الحجاج من ارواح الكثير من الأبرياء وبينهم الأتقياء ، وفي جملة من قتل منهم التابعي الكبير سعيد بن جبير كما اعتدى على كرامات بعض اهل السابقة في الاسلام كالصحابي انس بن مالك خادم الرسول وقد حماه الخليفة عبدالملك من بطش الحجاج لكانته ٠

١١ـ اشارة الى قول الشاعر ابن قيس الرقيّات في مصعب :

انما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد افلح ... من كان همّه الاتقاء

١٢ـ سكينة بنت الحسين زوجة مصعب بن الزبير الى جانب عائشة بنت طلحة ٠ وكانت سكينة من اكرم نساء عصرها واجملهن واعرفهن في الأدب والشعر ٠

١٣ـ كان عبدالملك عرض على مصعب الكف عن القتال وبذل له الأمان ووعده ان يوليه على العراق ما دام حياً فابى مصعب الا ان يغلب او يقتل لاعتقاده انه على حق ٠

١٤ـ اشارة الى ما ارتكب من قطع راس مصعب بعد قتله وارسال الراس الى عبدالملك ٠

١٥ـ اشارة الى ما كان من قطع راس الامام الحسين بعد استشهاده على ايدي جنود يزيد بن معاوية وهو يقاتلهم مع من بقي له من اهله وبعض من ثبتوا معه ثم حمل الراس الى يزيد ٠

١٦ـ اشارة الى ما كان من انفكاك اكثر جند مصعب عنه في القتال ٠

١٧ـ المنبر هنا كناية عن الصليب الذي صلب عليه جثمان عبدالله بن الزبير في مكة بعد استشهاده بامر من الحجاج ٠